المؤلف والنصّ في ضوء بعض الاتجاهات النقدية الحديثة

عبد المالك كجور

الجزائر

كان النقاد في أوربا، قبل ظهور النقد الجديد، ينظرون إلى النص الأدبي على أساس أنه كيان كامل الخلقة، وأنه إبن المؤلف أو الكاتب الذي هو منشئه أو مبدعه الوحيد بحيث لا تشاركه فيه أطراف أخرى. لذا، كان المؤلف عندهم -سيما عند فريق من أنصار التوجه التاريخي- يحوز قسطا وافرا من اهتمامهم عند دراستهم للنص، حيث تولى أهمية لنشأته وعوامل نبوغه والظروف التي أحاطت به في حياته.

ثم تغير هذا الموقف بظهور مناهج حديثة حيث لم يعد أنصارها يولون أهمية للمؤلف عند دراستهم للنص الأدبي. ومن هذه المناهج السيميائية والمنهج السوسيولوجي بصفة عامة والتداولية.

فقبل ظهور النقد المعاصر كانت الممارسة النقدية تتمحور حول العلاقة «علامة/مؤلف». وبعد ظهوره أصبحت تتمحور -على سبيل المثال- عند السيميائيين حول العلاقة

«دالات/مدلولات»، وعند أنصار التوجه السوسيولوجي حول العلاقة «علامة/سياق» (اجتماعي-تاريخي)، وعند التداوليين حول العلاقة «علامة/مستعملون» (منتجون ومتلقون) / إطار (situation).

نلاحظ أن الطرف الثاني (المؤلف) من العلاقة التي كانت تتمحور حولها الممارسة النقدية عند النقاد القدامى والتقليديين قد استبدل بـ«المدلول» (المعنى) عند السيميائيين، وبـ«السياق» عند أنصار التوجه السوسيولوجي، وبـ«المستعلمين» عند التداوليين. وفي هذا قلب لموازين النقد الأدبي التقليدي.

إن أنصار كل واحدة من هذه المنهجيات الثلاث متقاربون في موقفهم من المؤلف الذي لم يعد -مثلما كانت الحال عند التقليديين- يحوز قسطا من اهتمامهم عند دراستهم للنص الأدبي. فهل يمارس المؤلف سلطة كلية على النص الذي ينتجه يستحق بموجبها أن يكون محور اهتمام الدارس له، أو أنه، بخلاف ذلك، لا يمارس أي سلطة ذات شأن على النص، حتى يغيب كليا أو جزئيا عند دراسته؟

إنه السؤال الذي نطرحه ونحاول أن نجيب عنه في هذه الدراسة المتواضعة من خلال عرضنا لمواقف كل من أنصار السيميائية وأنصار المنهج السوسيولوجي ثم أنصار التداولية.

أولا: أنصار السيميائية

قل الاهتمام بالمؤلف في النقد الأدبي منذ بدأ يهيمن عليه التوجه الألسني. وتعد السيميائية الأدبية إحدى أبرز المنهجيات التي تدخل ضمن هذا التوجه. والسيميائيون ينظرون إلى النص الأدبي على أساس أنه نسق أو نسيج أو منظومة من العلامات اللغوية(1).

إن منطلق هذه النظرة هو تصور أصحابها لطبيعة النص اللغوية الخالصة؛ فهم لا يهتمون بما تحيل عليه العلامات اللغوية في الواقع. وهم يعزلون النص عن العوامل الخارجية التي تنتجه ومنها المؤلف الذي لا يتعدى دوره –انطلاقا من هذه النظرة– حد وضع هذه العلامة إلى جانب تلك، وتشكيل نسق منسجم من العلامات الدالة.

وقد حدت هذه النظرة الجديدة إلى النص بالناقد الفرنسي رولان بارث R. Barthes أن يعلن في الستينيات من القرن العشرين عن موت المؤلف حينما قال: «مات المؤلف!».

إن هذه العبارة التي أطلقها بارث تصلح مقاربتها بإحدى العبارات التي أطلقها الفيلسوف الوجودي الألماني فردريش نيتشه، قبله، حينما قال: «مات الإله!»

والحقيقة أن نيتشه قد عبر من خلال تلك المقولة عن أمر بالغ الأهمية: التقدم الذي أحرزه الإنسان الأوربي في ميدان العلوم والتكنولوجيا، بعد قيام الثورة العلمية المعاصرة في أوربا وما أحدثته من ثورة صناعية مكنته من التغلب على كثير من مظاهر الغموض التي طالما اكتنفت مظاهر الكون المختلفة وما صحبها من خوف الإنسان وحيرته من وجوده المبهم ما كان يدفعه، دوما، أن يلجأ إلى الغيب كلما أصابه خوف ووقع في حيرة.

لكن هذا المخلوق الضعيف، الإنسان، أصبح قادرا، بفضل التقدم العلمي والتكنولوجي الذي حققه، على تفسير كثير من ظواهر الكون التي كانت تستعصي على فهمه في أوقات سابقة. وقد استطاع أن يتغلب على الطبيعة، التي تمثل خصما له ولكنها أيضا تمثل مورده الوحيد للحفاظ على بقائه، فسيطر عليها

وسخرها لخدمة أغراضه المختلفة. فالتعبير عن نشوة هذا الإنتصار هو ما دفع نيتشه إلى القول بموت الإله!

ثم إن التقدم الذي أحرزه الباحثون الأوربيون في ميدان العلوم الطبيعية كان حافزا لأقرانهم من الباحثين في الظواهر الإجتماعية والإنسانية –ومنها الظاهرة الأدبية– على الطموح إلى تأسيس طرق لدراسة الأحداث الإجتماعية والإنسانية مبنية على قواعد علمية. وقد رأى المهتمون بالنقد الأدبي –سيما بعد اطلاعهم على إنجازات علماء اللغة البنويين، وعلى رأسهم فارناند دي سوسير F. de Saussure– إمكانية تحقيق الحلم الذي غدا يراودهم في وضع منهج للدراسة الأدبية تطبعه المعرفة اليقينية بالإرتكاز على لغة النص (العلامة اللغوية) وجعلها مادة الدراسة، من حيث أنها –حسب رأيهم– قابلة للتجريب. وبناء على ذلك، فقد كان لاكتشاف دي سوسير نموذج العلامة اللغوية أكبر محفز لهم على التشبت بالبنى والأنساق اللغوية التي يتأسس عليها النص الأدبي وعزله عن العوامل الخارجية التي تنتجه ومن ضمنها المؤلف.

ثانيا: المنهج السوسيولوجي

تتمحور الممارسة النقدية عند أنصار التوجه السوسيولوجي، بصفة عامة، حول العلاقة «علامة/سياق» التي يعبر عنها عادة بـ«نص/سياق»، أو «نسق لغوي/نسق اجتماعي» أو «نص تخيلي/نص غير تخيلي».

إن هؤلاء يدرسون النص في علاقته بالسياق الإجتماعي-التاريخي. وهذا راجع، أساسا، لاهتمامهم، بطبيعة النص الإجتماعية؛ فهم يقصون العامل الفردي (المؤلف أو الكاتب) من العملية الإبداعية التي يرون أنها من صنع الفاعل الجمعي.

يلتقي في ذلك أصحاب نظرية الإنعكاس (بزعامة جورج لوكاتش ولوسيان قولدمان) والتناصيون وعلى رأسهم ميخائيل باختين وجوليا كريستيفا. هذان الأخيران اللذان عدّلا في مفهوم الإنعكاس حيث ذهبا إلى أن الإجتماعي لا ينعكس بصورة آلية في النص الأدبي بل يعاد تشكيله فيه عن طريق وساطة اللغة. ويذهب هذان الكاتبان -كما يلاحظ بيتر. ف. تسيما- إلى حد اعتبار بعض أنواع النصوص، مثل النص السردي، تناصا، انطلاقا من التصور الذي يريان بموجبه أن السياق الإجتماعي، الذي ينطلق منه كل نص، هو نتيجة لتضافر المجموعات اللغوية. وهو ما يجعل من هذا السياق ذاته نصوصا بحيث لا يبقى على الفاعل الفردي، ذاك الذي يسمى «المؤلف»، سوى قراءتها وتعديلها(2).

وقد ازداد اهتمام أنصار التوجه السوسيولوجي في الدراسة الأدبية بالربط بين النص والسياق بحجة أن النص أقوال تعبر عن مصالح اجتماعية من حيث تأتي قيمة المبادلة(3). وهو ما حدا بهم أن يهتموا بوصف الإنتاج الأدبي وتفسيره في سياقيه اللغوي والاجتماعي، حيث يزاوجون بينهما ويسعون إلى إيجاد طريقة للربط بين بنية النص وبنية المجتمع، فغيبوا المؤلف الذي أصبحوا لا ينظرون إليه إلا بوصفه عنصرا ضمن بنية أشمل هي البنية الإجتماعية.

ثالثا: أنصار التداولية

يتناول أنصار التداولية التي هي -حسب جيرار جانجامبر G. Gengembre مجرد طريقة لتمعن الفعل الأدبي(4) -النص وفق العلاقة الثلاثية «علامة/مستعملون/إطار». ويشكل المؤلف أو الكاتب، إلى جانب المتلقي، الطرف الثاني من هذه العلاقة من حيث إن كليهما مستعملان للعلامة (النص)، مادة

التخاطب، التي هي وحدة تركيبية. والتركيب في النص الأدبي ذو وجهين: وجه نحوي وآخر بلاغي. ومن هنا ينشأ معنى لغوي أو حرفي، وآخر بلاغي أو أدبي. أما الأول فيمكن إدراكه مباشرة من خلال النظم. وأما الثاني فينشأ عن التداعيات التي تحدثها الوحدات النظمية في ذهن المتلقي (السامع أو القارئ) الذي ينهل من خزان العلامات التي يتضمنها فينتقي منها ما يراه مناسبا للغرض المعبّر عنه. وبذلك يدخل إسهام المتلقي في إنتاج هذا المعنى. وهذا -حسب فهمنا- هو الأساس الذي بنيت عليه نظرية التفاعل (théorie d'interraction) لأصحابها زعماء نظرية التلقي. وهذا ما يبرر دعوة هؤلاء، ودعوة أنصار التداولية أيضا، للإهتمام أكثر بالمتلقي، عند تناول النص الأدبي من حيث إنه، في نظرهم، نتاج تفاعل قراءة أكثر منه نتاج إبداع مؤلف، الذي بدا لهم أشبه بالمهندس الذي يبني البناية ويتركها بمجرد أن ينهي بناءها، دون الإهتمام بالغرض الذي تستخدم له. لكن أحد أبرز الوجوه ضمن هذا التيار، دومنيك مانقونو D. Maingueneau، أصبح يدعو، في أحدث كتاباته، إلى الإهتمام بالمؤلف وبحياته في الدراسة الأدبية(5).

والواقع أنّ للمؤلف، في اعتقادنا، سلطة يمارسها على النص تنتج في لحظتين اثنتين نحاول تبيانهما في ما يأتي:

– أما الملاحظة الأولى فهي التي يلاحظ فيها المؤلف الأحداث الاجتماعية في استقلاليتها التامة، أي قبل أن تمتزج بتجربته الذاتية (رؤيته الفنية). وهي اللحظة التي يختار فيها هذه المجموعة من الأحداث أو تلك ليعبّر عنها. إنّ فعل الإختيار ذاته يمكن اعتباره فعلا سلطويا يمارسه صاحبه على النص قبل تشكله، ذاك الذي نسميه «النص القبلي»، إن جازت التسمية.

– وأما اللحظة الثانية فهي التي يختار فيها المؤلف وحدات لغوية بعينها كي يعبر من خلالها عن الأحداث المختارة انطلاقا من وعي معين، ذاك الذي يسميه

تون فان ديك T. Van Dijk «السياقات»(6)، التي تقابل فكرة «النظرة الكلية» عند لوكاتش، وفكرة «رؤية العالم» عند ڤولدمان.

إنّ المؤلف، من خلال هذا الفعل، يقوم بنقل الأحداث التي يريد التعبير عنها من كونها علامات اجتماعية إلى علامات لغوية أو أدبية حيث تمتزج تلك الأحداث التي هي تجربة خارجية بتجربته الذاتية عبر وساطة اللغة لتكون معدلة في النص المشكل من حيث تنشأ الحقيقة المجازية (vérité métaphorique) بتعبير بول ريكور P. Ricoeur أو الحقيقة الأدبية (vérité littéraire) بتعبير تزفتان تودوروف T. Todorov حسب ما ينقله لنا جون ميشال آدم J.M. Adam(7).

ثم إن المؤلف يمارس، من خلال النص الذي يقوم بتشكيله، مفعولا ما على المتلقي، وهذا يتوقف على مدى قدرته على دغدغة شعوره والنفاذ إلى فكره. وقد أشار هارلد ونريش H. Weinrich، الذي يذكره ج.م. آدم، إلى الدور التهذيبي (التوجيهي) الذي يمارسه المؤلف، من خلال العلامة اللغوية، على المتلقي حيث يحثه على أن يتصرف بطريقة ما لتصبح تلك العلامة في وضع ما، فعلا تهذيبيا أو توجيهيا(8).

يحسن القول بنا على ما تقدم، أن الاعتراف بسلطة النص يعني الاعتراف بسلطة المؤلف على النص. وقد عبر الإيطالي أمبرتو إيكو U. Eco –حسب فهمنا– عن قصد أو غير قصد، عن شيء من هذا حينما تحدث عن اللغة الأدبية التي اعتبرها مغلقة ومفتوحة، في آن واحد، فهي مغلقة في نظر المؤلف الذي يريد أن يعبر من خلالها عن موضوع ما ويبرز معنى ما، ومفتوحة من حيث إنها تفتح أفق انتظار، أي أفقا للقراءة والتأويل وإنتاج معان ودلالات جديدة(9) قد لا يكون المؤلف قصد إليها.

الهوامش:

(1) - ستيفن نوردابل لاند، «مغامرة الدال: قراءة لبارث» في: أصول الخطاب النقدي الجديد، تر / وتقديم أحمد المديني ط / 2، عيون المقالات، الدار البيضاء، المغرب، 1989، ص 50، نقلا عن: Roland Barthes, (Eléments de sémiologie) In. Communication 4, Paris, 1964.

(2) - بيترف تسيما، علم النص الاجتماعي، عرض «أبو العيد دودو» مجلة «اللغة والأدب»، عدد 12، الجزائر، 1997، ص 286-287.

(3) - نفس المرجع، ص 238.

(4) - Gérard Gengembre, Les grands courants de la critique littéraire, Le Seuil, Paris, 1996, p. 62-63.

(5) - Ibid.

(6) - تون فان ديك، النص بناه ووظائفه (نظرية الأدب)، عرض عبد القادر بوزيده، مجلة «اللغة والأدب، عدد 11، الجزائر 1997، ص 10.

(7) - J.M. Adam, Langue et littérature: analyse pragmatique et textuelle, Hachette, Université, Paris, 1991, p. 29-30.

(8) - Gérard Gemgembre, op. cit., p. 67.

(9) - Gérard Gemgembre, op. cit., p. 59 tiré de: oeuvres ouvertes de Umberto Eco T.d. fr 1962.